اسم الدرس : تفسير سورة الرعد (٤) | الآيات (١٧ : ٢٥)

تصنيف الدرس : مجلس التفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- نستكمل بإذن الله تعالى مجالس القرآن في سورة الرعد.

هذا المجلس الرابع، أسأل الله- سبحانه وتعالى- أن يُتم لنا على خير، وأن يوَّفقنا جميعًا لحفظ كتاب الله ولفَهمه، وللعمل به، وأن يجعلني وإياكم من أهل القرآن.

كنا توقفنا عند قول الله تعالى: {قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ} [الرعد: ١٦] آخر الآية السادسة عشر،

وذكرنا أنَّ الآية السادسة عشر فيها هجوم؛ أي أنَّ فيها قوة!

وكما ذكرنا، ففيها تكرار كلمة {قُلِ} متتالية أربع مراتٍ في آيةٍ واحدةٍ –هذه الآية-.

ففي هذه الآية بعد التفصيل لقدرة الله المطلقة –سبحانه وتعالى- في السموات وفي الأرض، وبعد بيان الحُجة القرآنية، وبعد ضرب الأمثال لعدم نفع آلهة المشركين لهم، وبيان قدرة الله المطلقة –سبحانه وتعالى- ومثال الرعد الذي يُسبح بحمده، والملائكة من خيفته، بعد كل هذه المقدمات والتفصيل والتأصيل؛ بدأ **الهجوم الدعوي**، هذا الهجوم الدعوي أنتج عنه الآية التي تليها.

هذا الهجوم: قلْ، قلْ، قلْ، قلْ؛ أنتج ماذا؟!

أنتج الآية التي تليها، هذه الآية!

الآية السابعة عشر آية محورية في سورة الرعد –هذا في ظنّي والله أعلى وأعلم- في فهم سورة الرعد،

بل وأظنُّ ظنًّا مني –والله أعلم- أنَّها **آيةٌ محوريةٌ في منظومة {الر} –على وجه العموم- أو آل {الر}**،

والتي تبدأ من أول سورة يونُس، وتنتهي بسورة الحِجر، مرورًا بسور: هود ويوسُف والرعد وإبراهيم.

كما حاولنا في سورة العنكبوت الحديث عن آل {الم} المكي،

وقبل ذلك آل {حم}، وتكلَّمنا من قبل في غافر والزُخرف، وذكرتُ قبل ذلك أنَّ آخر صفحة في سورة الأحقاف كأنَّها ختام لآل {حم}

وإلى الآن لم يُفتَح لي في فَهم آل {طس}، وبعضهم يُسميها طواسين، وإن كان بعض اللُّغويون يُفضِّل آل {طس} بدلًا من جمع التكسير؛ لواميم، أو حواميم أو طواسين.

تكلمتُ قبل ذلك أنَّ هذه السور **تكاد تجمعها منظومةٌ واحدةٌ!**

لذلك من المعاصرين د. محمد أبو موسى -أسأل الله أن يبارك في عمره وفي علمه- عندما كتب سلسلة كُتب آل {حم} بدأ بهذه المجموعة، وحاول أن يشرح الترابط بينها، وشرح (غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف)،

وبعدما انتهى من آل {حم} شرح في كتاب السورة التي قبلهم وهي سورة الزُمَر، والسورة التي بعد آل {حم} ةهي سورة محمد، ووضعهم في كتابٍ واحد على أساس أنَّها السور التي أحاطت آل {حم}.

الشاهد: أنَّ هذه الآية التي معنا اليوم -أسال الله أن يفتح لنا في فهمها-، هذه الآية -والقرآن كُلُّه كذلك- لكن في ظنّي أنَّ هذه الآية دسمة جدًا!

وتحتاج إلى مدارسة، تحتاج إلى كثرة قراءة، فما سنذكره اليوم هو مجرد ملاحظات في هذه الآية.

ترددتُ كثيرًا في شرح هذه الآية؛ لأنَّها مَثَلٌ أو مَثَلَيْن؛ **مَثَلٌ ناري، ومَثَلٌ مائي** -كما عبَّر ابن كثير-،

والمَثَلَيْن المائي والناري تكررا في القرآن في سورة البقرة، ونوعين من الأمثال في سورة النور.

مَثَل سورة البقرة، ومَثَل سورة الرعد، ومَثَل سورة النور: من الأمثال المهمة التي **تعطيك فهمًا لقضية نزول الحق**، ثم الصراع بين الحق والباطل، فمن الضروري أن يُتقن الإنسان هذه الأمثلة، ويقرأ فيها كثيرًا، وكلما قرأ فيها الإنسان، كلما انبهر بالعطاء القرآني الذي لا ينضب!

فكلما يقرأ في هذه الأمثلة القرآنية وما قيل فيها يكاد يتعجب.

حاولتُ أن أقرأ لكثير من المفسرين في هذا المثل، ثم فوجئت أنَّ من أواخر مَن قرأتُ لهم من المعاصرين الشيخ **عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني** في كتابه أمثال القرآن، وليس في تفسير سورة الرعد..

حقيقةً من أكثر النَّاس إبداعًا في شرح هذا المِثل-في ظنّي وفي تقييمي الشخصي- هو **وابن القيم**، هؤلاء الاثنان من أكثر مَن أبدع في شرحه؛ وأرجو أن تعودوا لقراءة كلامهم، فمهما تكلَّمتُ فلن أُحسنَ ككلامهم وأسلوبهم!

ومجموع كلام ابن القيم الموجود في كلامه وكتبه، جمعه بعض العلماء في كتابٍ أسماه "التفسير القيم" في مجلد واحد، ثم تم جمع تفسير ابن القيم في خمسة مجلدات، أو طُبعت مضغوطة في ثلاثة مجلداتٍ اسمه "بدائع التفسير"، وهُناك كتاب بعنوان "ترجيحات ابن القيم في التفسير" في مجلدَين، لكنَّه لم يجمع كلام ابن القيم واختياراته كلها.

الشاهد: إذا عُدنا لبدائع التفسير وقرأت كلام ابن القيم في هذا المثل، فهو كلامٌ رائعٌ!

أو كلام الشيخ عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، خصَّص فصلًا كاملًا في كتابه أمثال القرآن لتلك الآية بالتفصيل، في حوالي ما يقرب من بضع وعشرين صفحة، وقد استفدتُ من كل المفسرين –ومنهما تحديدًا–، وغالب ما سأذكره إما من كلامهم أو تفريعًا على استنباطاتهم لننسب الفضل لأهله قبل أن نبدأ.

وترددتُ كيف أشرح المثل؛ هل أقرأ الخلاصات؟ أم نحاول قراءة الآية سويًا ونستخرج من كل كلمة بفائدة؟

غالبًا سنبدأ بالطريقة الثانية، وفي النهاية إن شاء الله سأُجمل المثل.

{قلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ * أنزَلَ} [الرعد:١٦-١٧]

تحدَّث الشيخ مُحمد قطب في كتابه دراسات قرآنية بكلام جميل، هُنا عنصر مفاجأة!

تخيَّل معي أنَّك تقرأ هذه الآية لأول مرة: {الوَاحِدُ القَهَّارُ} {أَنزَلَ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً}

فيُهيَّأ لك أنَّ الآية تتكلم عن آيات الله الكونية،

كما كانت الآيات في بداية السورة {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد:٢]، {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى} [الرعد:٨]

وفي الآيات التي تناولناها:{وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} [الرعد:١٣]

هُنا أنت تتصور أنَّ {الوَاحِدُ القَهَّارُ * أنزَلَ} كما وصلنا..

{أَنزَلَ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً}

قد تظن لأول وهلةٍ أنَّ الآية تتحدث عن الآيات الكونية!

{أَنزَلَ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً} فتتخيَّل منظر المطر

{فسَالتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِهَا فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زبدًا رابيًا}

انتهى المشهد!

مشهد آخر؛ سبيكة مُخلَّطة من الذهب مثلًا –المعدن الأساسي –ومعه شوائب، أو أي معدن آخر ومعه شوائب، الشوائب ستذوب في النار، فيظهر الزبد ويبقي المعدن الأساسي صافيًا.

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبتِغَآءَ}

أنا أُدخِل هذه السبيكة في النار؛ لأحصل على حُلي إن كانت ذهبًا أو فضةً، أو لأحصل على متاع إن كانت حديد أو رصاص أو غير ذلك من المعادن

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ} وفي قراءة: ومما توقدون

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبتِغَآءَ حِليَةٍ أَو مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثلُهُ}

أي: مثل الزبد الذي كان مع السيل {زَبَدٌ مِّثلُهُ}

فأنت تتصور أنَّ المشهد الأول مشهد آية كونية، والمشهد الثاني مشهد كيف ينتفع الناس بالحصول على المعادن الأصلية، والتخلُّص من الزبد المحيط بهذه المعادن،

وتُفاجَأ: {كَذَٰلِكَ يَضرِبُ ٱللَّهُ}

يضرب الله ماذا؟

{الحَقَّ وَالبَاطِلَ}

ما هذا!

هذا يعني أنَّ ما سبق كان مثَلًا للحق والباطل!

فتُعيد قراءة الآية مرَّة أخرى من البداية؛ لأنني احتاج أن أفهمها، فقد كُنت أعتقد أنَّ هذا نموذجًا عامًا للآيات الكونية، فإذا بالآية تقول لك تعلّم

-هذه نقطة مهمة جدًا وقد شرحتها بالتفصيل في قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [الأعراف:٥٨]-.

فالآية هُنا تقول لك: **تعلَّم كيف تستفيد وكيف تربط بين الآيات الكونية وبين سُنن الله المعنوية في الناس.**

مرّة أخرى؛ الله سبحانه وتعالى لكونِه سُنن، الكون ليس عبثًا، فهُناك **سُنن كونية،**

ما معنى **سُنن كونية مادية؟**

أي أنَّ درجة غليان الماء عند كذا، وينصهر الحديد أو يُطرَق عند كذا، ومواصفات الخشب كذا، والنحاس كذا، فهذه المواصفات سُنن مادية ثابتة، وفَهم النَّاس لهذه السنن جعلَهم يصنعون حضارة مادية، وعلى قدر فَهم هذه السُنن؛ على قدر التمكُّن من التعامل مع الطبيعة.

وهُناك **سُنن معنوية أخرى** -إن صحّت التسمية-؛ وعندما تحدثنا في المرة الماضية في قول الله سبحانه وتعالى:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد:١١]

وتكلّمتُ عن العلماء المتأخرين الذين اهتموا بقضية السنن الاجتماعية.

هُنا حدث في الآية كما حدث في آية الأعراف: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [الأعراف:٥٨]؛

حدث دمج؛ حيث أنَّ **هُناك سُنن كونية يصلُح أن نستنبط منها السُنن الاجتماعية**، كهذا المثَل الذي بين أيدينا.

ومن الكتب ذات الأفكار الجميلة -وإن كنتُ أرى أنَّ فكرة الكتاب كانت تحتاج لتثوير أو مناقشة أكثر-

كتاب [إعجاز النظم القرآني في ربط السنن الكونية بالسنن الاجتماعية] لـ د. توفيق علي زبادي؛ كتيّب صغير من إنتاج مركز تدبر،

يقول فيه بتعبير ابن عاشور أنَّها **من عادات القرآن**؛ وهي أن يأتي القرآن بسُنة كونية ثم يُسقط على سُنة اجتماعية.

انظُر للآية التي بين أيدينا:

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ}

السُنة الكونية هي: أنَّ الذهب يُوضَع في النار ليزول ما عليه من خَبَث، عند نزول الماء يطرد القاذورات من على الأرض وكيف يتحول إلى سيل، وكيف يصبح السيل زبدًا، والزبد يذهب جفاءً.

كل هذا سُنة كونية، يراها الإنسان بعينه؛ **سُنة مادية**، كيف نستفيد من هذا في السنة الاجتماعية؟!

إذًا هُنا بعدما أنهيت الآية، اتضح لي أنَّها لا تتحدث عن سنةٍ كونية؛ بل أنَّ الآية تربط سُنة كونية بسُنة اجتماعية،

تأتي لختام الآية: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}

فتدرك أنَّ الآية لا تتحدث عن مجرد نزول الماء، والزبد حول الذهب والفضة والمعادن فحسب؛ بل تتحدث عن صراعٍ بين الحق والباطل .

فلنعد إذًا لنقرأ الآية مرةً أخرى، تعالوا نقرأها كلمة كلمة:

{أَنزَلَ}

فعل ماضٍ

{مِنَ السَّمَاء مَاءً}

نكرة

{فَسَالَتْ}

انظر هُنا للتعبير بالفعل الماضي؛ سالت سَيَلان، كان من المتوقع: فسال الماء في الوادي، لكن هُنا:

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}

من المعروف أنَّ الماء هو الذي يسيل في الوادي، فغيَّر القرآن التعبير: {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}

ثم هل قال فحمل السيل؟! لا؛

{فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا}

وهُنا ينتهي المشهد الأول، وكل كلمة منه لها دلالة؛

هل قال ومما أوقدوا؟ لا، بل قال:

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ}

عبَّر هُنا بالمضارع بينما في أول الآية كان بالماضي.

عليه؛ من الطبيعي أنَّ الوقود فيه نار فلماذا قال: {فِي النَّارِ}؟

القرآن مبنيٌّ على الإيجاز فلماذا جاءت {عَلَيْهِ فِي النَّارِ}؟!

إذًا {عَلَيْهِ} لها دلالة، و{فِي النَّارِ} لها دلالة.

{ابْتِغَاء}

كان من الممكن قول ابتغاء حلية فقط؛ لماذا ابتغاء شيء من اثنان؟!

{ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ}

تقف هُنا -ليس وقف تلاوة، بل لتفهم المعنى-

{زَبَدٌ مِّثْلُهُ}

هُنا الخبر، أي زبَد مثلُ الزبَد الأول.

تعالوا لنقف مع هذه الكلمات، اتجه المفسرون في هذه الآية لعدة مدارس، أشهرهم **مدرستين**:

*مدرسة تقول: -في مثال سورة البقرة ومثال سورة النور ومثال سورة الرعد- تقول أولاهما:

إما أن يقول المفسّر ليس الغرض من المثال تشبيه كل جزئية بجزئية، وإنما الغرض: **تشبيه صورة متكاملة بصورة أخرى متكاملة.**

*والثانية تقول:

إذا فعلنا ذلك ستضيع روعة المثَل فطالما ذكر القرآن **جزئيات** كثيرة فلا بد أنَّ لها دلالات.

فمثلًا:

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩]

* مَن سيختار المدرسة الأولى **وهي تشبيه صورة متكاملة بصورة متكاملة:**

ليس من الضروري أن يقول والظلمات تشير إلى كذا، والرعد يشير إلى كذا، والبرق يشير إلى كذا، والصواعق تشير إلى كذا، سيقول مشهد الإنسان الذي يسير في الصحراء، فجاء رعد وبرق، فخاف، فوضع أصابعه في أذنيه، وهكذا إلخ، هذا أشبه بالمنافق الذي يخاف من سماع القرآن.

* أما المدرسة **الثانية [تفصيل]** فتقول:

إنَّ التشبيه هُنا يُقصَد به **ربط**، ونبحث ما هي الظُلُمات، والرعد وما هو البرق؛ كي نفهم بوضوح أكثر.

وهذا أيضًا موجود في سورة النور؛ البحث عن ما هي المشكاة؟ وما هي الزجاجة؟ وما هو الكوكب الدُري؟ وما هي الشجرة المتوسطة لا شرقية ولا غربية؟ إلخ..

مَن سيختار المدرسة الثانية يحتاج أن يُحلل ويُربط، ومن السلف مَن قال بهذا، ومنهم من قال بذلك.

لذلك؛ المدرسة الثانية التي ستُفصّل سوف تحتاج أن تجتهد في الاستنباط، ونحن نميل مع المدرسة الثانية، ونرى أنَّ **كل كلمة هُنا لها دلالة في المثَل.**

أولاً من الواضح جدًا بالرغم من كونهما صورتين وفي نهاية كل صورة زبد، ونهاية كل منهما واحدة:

{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}

إلا أنَّ الصورتان اللتان تؤديان إلى النهاية مختلفة؛

فصورة الماء النازل من السماء {أَنْزَلَ}-وهو بصيغة الماضي- وصيغة المضارع في {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ}

هُنا يقول الشيخ حبنّكة الميداني إنَّ لكل منهما دلالة وإشارة تختلف عن الأخرى.

وهناك بعض كلمات من كلمات السلف نستطيع أن نأخذ منها تلك الإشارات، خاصةً المروي عن ابن عباس.

وقد قال غالب المفسرين في المجمل أنَّ هذا المثَل **ضُرِب للصراع بين الحق وأهله، مع الباطل وأهله**

فالكُتب المختصرة مثل ابن جُزَي تكتب هذا الكلام المختصر.

الشيخ حبنّكة الميداني قال:

إنَّ الجزء الأول -المثل المائي- يشير **للحق النازل من السماء،**

والجزء الثاني -الناري- من المثَل يشير إلى **تطبيق الحق من أهل الحق،**

فنجد هُنا صراع **بين الأفكار والعقائد** في الجزء الأول، والثاني صراع **مادي على الأرض**، صراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل على الأرض،

فهذا صراع معنوي على مستوى الأفكار، والثاني صراع مادي على مستوى القوة والسلاح،

وسنأخذ تفصيل هذا الكلام.

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا}

مثال مائي -> للحق النازل من السماء -> صراع بين الأفكار والعقائد -> صراع معنوي على مستوى الأفكار

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ}

مثال ناري -> تطبيق الحق من أهل الحق -> صراع مادي على الأرض بين أهل الحق وبين أهل الباطل -> صراع مادي على مستوى القوة والسلاح

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء}

صراع بين الحق والباطل على مستوى **الأفكار**، ماذا تعني على مستوى الأفكار؟

لو دخلتُ مناظرةً مع ملحد، سيكون هُنا صراعٌ بين الحق والباطل على مستوى الأفكار أم المادة؟

مؤكد أنَّه على مستوى الأفكار والعقائد،

قامت حرب بين المسلمين والكفار؛ غزوة بدر، غزوة أُحد، غزوة الأحزاب، كل هذا في الجزء الثاني..

وسنذكر الفرق بينهما أو سأقدم لكم مقدمة سريعة؛

لأننا لا بد أن ننتصر على مستوى الأفكار، لذا **جاءت بصيغة الماضي**، {أَنزَلَ}

فعلى مستوى الأفكار والمناظرات والعقائد؛ لا بد أن **تنتصر** لأنَّ الدين كامل

أما على مستوى التطبيق؛ قد يحصل **نقص وذنوب**، فنُعاقَب {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:١٤٠]

لذا جاءت بصيغة المضارع

أما لو وقعت هزيمة على مستوى الأفكار والمناظرات وطرح العقائد، فهذا تقصير منك!

أنت الذي لم تفهم الماء النازل من السماء جيدًا، لم تستوعب جيدًا، الوادي الخاص بك لم يحتمل قدرًا كافيًا من الماء النازل من السماء، الهزيمة على الأرض لها ألف سبب، لها سُنن كثيرة من الممكن أن تقع هزيمة :

{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}

قد يُذنب جزء صغير من الجيش -كما حدث في غزوة أُحد- فينهزم الجيش كُله، قد لا تكون أنت الذي قصَّرت، بل لها سُنن كثيرة، **فليس معنى هزيمة المسلمين في غزوة أُحد، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قصّر** -وحاشاه ذلك-.

هذا أول فارق مهم جدًا في الصراع بين الحق والباطل: على مستوى الأفكار، وعلى مستوى الأرض-المادة-.

ونضرب نموذجًا ليتضح الأمر؛

فعندما جاء وفد النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم وتكلم معهم النبي صلى الله عليه وسلم.

هُنا لا بد أن تنتصر، **حتمًا ولا بد ستنتصر لو كنت متقنًا لدينك،**

فدينُك كامل: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٦]

وأي فكرة أرضية أخرى فهي ناقصة، وأي فكرة سماوية تم تحريفها فهي ناقصة، **فلا بد لك أن تنتصر!**

ومن الوارد حصول الهزائم على مستوى الأرض،

فإذا هُزِمت على مستوى الأرض لا تقل كيف؟! {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} [آل عمران:١٦٥]

قد يحدث، **ولا عجب في حدوث الهزيمة على مستوى الأرض**، ستظل هناك مداولة، ونبحث عن أسباب النقص، لكن سيحدث.

إنما على مستوى الأفكار، إن هُزِمتَ فسيكون **عندك نقص**، لديك إشكالية، أنت لم تستوعب الماء الذي نزل من السماء.

{أَنزَلَ}

فعل ماضي، وهذا من كرم الله سبحانه وتعالى أنَّه لم يترك الأرض سُدى.

أريدك أن تتخيَّل مشهد الأودية وليس فيها ماء؛ أودية فيها رمل وحجارة وقاذورات وأوراق، مهجورة،

هذا حال الناس وحال قلوبها قبل نزول الوحي..

أغمض عينيك وتخيَّل مشهد هذه الأودية بالجفاف والعطش والقاذورات التي كانت في هذه الأودية قبل نزول الماء،

فهذا كان **حال الناس قبل نزول الوحي، وهذا حالُنا حينما نبتعد عن الوحي**.

فمن كرم الواحد القهار-في الآية قبلها: قلْ... قلْ... قلْ ... قلْ،

هذا التوجيه الدَّعوي يحثّك ويُجبرك على الكسب والانتصار في المناظرات الدعوية، لكن قد تُهزم في التطبيق أحيانًا.

{أَنزَلَ}

بكرمه وفضله بصيغة الماضي، مثل: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}

{مِنَ السَّمَاءِ}

فالوحي من الله سبحانه وتعالى

{مَاءً}

جاءت نكرة؛ قد تفيد شيئًا من اثنين:

١- **الصفاء** -وليست النكرة هي التي تفيد الصفاء وإنما **ماءً**-:

فهو ماء نزل صافيًا، لا تشوبه شائبة، **الوحي نازل صافيًا**،

الوحي لينزل إليك محفوظًا مرَّ بمراحلٍ أنت لا تتخيَّلها !

تكلَّم به الله سبحانه وتعالى حقيقةً، وسَمِعه جبريل عليه السلام من الله سبحانه وتعالى، ونزل به جبريل من السماء على قلب النبي- صلى الله عليه وسلم-

وفي خلال هذه المراحل؛ حاولت الشياطين استراق السمع، وحاولت الشياطين أن تأخذ شيئًا من القرآن، وحاولت أن تصرف النبي صلى الله عليه وسلم عن سماع الوحي، والنبي صلى الله عليه وسلم كان أحيانًا يتعجل وهو يقرأ القرآن، حفظ الله القرآن في صدر النبي -صلى الله عليه وسلم- وحفظ الله القرآن على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ} [الأعلى:٦].

فقد مرَّ الوحي بمراحل حفظ كثيرة حتى يصل إلينا، ذكرتها تفصيليًا في ترتيب سور البروج والطارق والأعلى، وكيف حُفِظ القرآن من خلال هذه السور الثلاث،

هذه السور تشرح لك أنَّه مهما حاول أهل الباطل فتنة الناس وصرفهم عن الوحي، لن يستطيعوا؛ فالقرآن محفوظ.

{مَاءً}

٢- **صافيًا**، والنكرة تفيد **الكثرة**

الوحي عظيم، **وكثرة الوحي ليس في عدد الآيات فقط، وإنما في المعاني التي لا تنضب**؛ "لا يَخلَق على كَثرة الرد"[١]، القرآن لا يبلى كُلّما عدتَ إليه، القرآن لا ينتهي

{مِا نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ} [لقمان:٢٧]، أي أنَّ معاني كلمات الوحي لا تنتهي -على أحد التفسيرات-؛ لذلك هو صالح لكل زمان ومكان

وكثيرًا ما يأتي تشبيه القرآن بالغيث، وأشهر مثال حديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو حديث عظيم يستحق الدراسة، وقد شرحته سابقًا في درس "إنَّه القرآن" في دورة بصائر قرآنية وهو في صحيح البخاري.

[١] [عن عبدالله بن مسعود:] إنَّ هذا القرآنَ مأدُبةُ اللهِ، فاقبلوا مأدُبَتَه ما استطعتُم، إنَّ هذا القرآنَ حبلُ اللهِ، والنورُ المبينُ، والشفاءُ النافعُ، عصمةٌ لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لمن اتَّبعه، لا يزيغُ فيُستعتَبُ، ولا يَعوَجُّ فيُقوَّمُ، ولا تنقضي عجائبُه، **ولا يَخْلَقُ من كثرةِ الرَّدِّ**، اتلوه؛ فإنَّ اللهَ يأجرُكم على تلاوتِه كلَّ حرفٍ عشرَ حسناتٍ، أما إني لا أقول لكم: (ألم) حرفٌ، ولكن ألفٌ ولامٌ وميمٌ
الألباني (ت ١٤٢٠)، ضعيف الترغيب ٨٦٧ • **ضعيف**

عن أبي موسى الأشعري قالَ: قالَ رسُول اللَّه □ :

"مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ (شبه الوحي بغيث، الناس تحتاج الإغاثة)

أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها (أي من الأرض، ثلاثة أنواع:)

نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، (أرض طيبة أخذت الماء) فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ،

وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، (كان دورها أن تحفظ الماء لكن لم تستطع أن تتفاعل فتُنبت الكلأ والعُشب)

فَنَفَعَ اللَّهُ بها النّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا،

وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، (وأرض قيعان لم تمسك شيئًا) "[٢]

فالقلوب ثلاثة أنواع:

1-قلب يستطيع أن يتفاعل مع الوحي ويُخرج معاني جديدة،

٢-وقلب لا يستطيع إلا أن يحفظ الوحي ويُسلّمه إلى غيره؛ لذلك كان منهم الفقهاء ومنهم الحُفَّاظ، ومنهم مَن جمع بين الاثنين، وقد استفاض ابن القيم في هذه المسألة، وذكر أمثلة لهؤلاء ولهؤلاء ولهؤلاء

٣-وكان منها قيعان؛ أي قلوب لا تسمع شيئًا من الوحي، لا يبقى فيها شيءٌ من الوحي، فقد يقرأ إنسان عشرة أجزاء، ولا يبقى في قلبه آية، فهذه أرض قيعان لا تمسك الماء.

إذًا؛

{أَنزَلَ}

ماضٍ

{مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}

صفاء وكثرة

[٢] [عن أبي موسى الأشعري:] مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٩ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٢)

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}

ما الفرق بين: فسال الماء في الوادي، وبين فسالت أودية؟!

من كثرة الماء في الوادي، واختلاط الماء بالوادي، فحينما تنظر إليه، **كأنَّ الوادي بنفسه يتحرك**، تنظر إلى الوادي وكأنَّ الأرض تتحرك؛ لكن الماء هو الذي يتحرك

وسيلان الماء في الوادي يدل على شيئين: **أنَّ الماء مستمر في النزول، وأنَّ ثمة أمواج تحدث**؛ مشهد اضطراب.

سأضرب لك مثلاً بسيطًا تستطيع تجربته بنفسك؛ ضع دلوًا فيه قاذورات، ثم افتح صنبور الماء عليه، ستجد أنَّ الماء ينزل فيختلط بالقاذورات الموجودة؛ استمرار نزول الماء مع اضطراب الحركة سينتج عنه فقاعات كثيرة من القاذورات على سطح الدلو، وهذا هو المشهد الأول..

إذا اكتفيت بالماء هُنا سيظل الماء غير نظيف، أما إذا استمر نزول الماء أكثر؛ سيتساقط ما اجتمع على السطح من القاذورات، فإذا مكثت لفترة طويلة هكذا سيصبح الماء صافيًا، استمرار نزول الماء

التعرُّض المستمر لآيات القرآن، مع هذا الاضطراب الحادث بين الماء والقاذورات، هذا هو:

{فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا}.

لو قُلنا إنَّ معنى الجزء الأول من المثَل: أنَّ القرآن نزل على قلوب الناس؛

فمن القلوب **مَن أنكره** –أرض أجادب، لم تأتِ هُنا– كالكوز مُجخيًا[٣]؛ أي عندما تنكِس الكوب وتَسكُب فيه الماء، فلن يدخل فيه شيء من الماء، مَثَله كمن انتكست فطرته، فلا يريد أن يسمع القرآن.

وهُناك **مَن بدأ يأخذ من الوحي**، لكن كلٌ بقدر ما يحمله قلبه، هُناك مَن قلبه لا يحتمل أكثر من خمس آيات، كمن يصلي التراويح، فيخشع في أول خمس آيات من أول ركعة، ثم أغلقَ قلبه، وقد يحدث هذا في البداية، لكن هناك إشكال إن ظلّ هكذا لسنوات، تحتاج توسيعًا للقلب ليستمع أكثر.

[٣] [عن حذيفة بن اليمان:] تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى يصيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُربَدًّا **كالكُوزِ مُجَخِّيًا**، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٩٦٠ • صحيح

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}

هُناك وادٍ كبير يسع كثيرًا من آيات الوحي، الإمام مسروق تلميذ ابن مسعود الكوفي يقول:

أنَّه كان يذهب لأصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم- ليتعلم، يقول:

" *لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ* (والإخاذ هو **ما يُجمَع فيه الماء** مثل الحوض أو النهر، سواءً كان صغيرًا أو كبيرًا)، *فالإخاذ يروي الرجل*، (أي كان هناك رجل لا يفعل شيئًا إلا أن يشرح لرجل شيئًا)، *والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ*" .

أي يخرجوا من عنده ريان، عكس عطشان {لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ} [القصص:٢٣] كما ذكر الله في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، فالإنسان يَرِد الماء **وردًا أي: عطاشًا**، كما قال ابن عباس في آخر سورة مريَم، **ويصدُرَ أي: شَربَ حتى ارتوى**.

ومعنى كلامه أنَّه وجد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مَن لو اجتمع أهل الأرض؛ فعنده من العلم ما يكفي هؤلاء الناس جميعهم منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

يقول قتادة أنَّه صاحَب الحسن البصري ثلاث سنواتٍ، في كل يوم يسمع منه شيئًا جديدًا.

هُناك مَن هو غنيٌّ بالمعاني، غنيٌّ بالعلم، حينما تصحبه، يعطيك كل يوم ما هو جديد؛ **لأنَّ قلبه امتلأ**،

وهُناك مَن هو قلبه صغير، لا يحتمل ولا يريد الزيادة!

فالقرآن يقول:

{فسَالتْ أوْدِيَةٌ}

بماذا؟

{بقَدَرِهَا}

هناك من يخرج من الدرس بكل ما فيه من معلومات، وهُناك مَن يخرج بمعلومة، وهُناك مَن يخرج من السورة بآية، وهُناك مَن يخرج بعشرِ آيات، بحسب القلوب، **أنت مُطالب بعملية توسيع القلب؛ ليسع أكبر كم من الآيات**.

إذًا المشهد الأول؛ **نزول الوحي على القلوب، وعند نزوله تكون القلوب مليئة بالشبهات والشهوات، فيجتث الوحي هذه الشبهات والشهوات**.

{فاحْتمَلَ}

ليس فحمل، بل فاحتمل؛ لأنَّ احتمل فيها صيغة **تكلُّف**، **هُناك صراع يحدث بداخلك عندما تسمع القرآن** !

فالقرآن يُطالبك بالتخلّي عن كثيرٍ من أفكارك، ومعتقداتك، ومبادئك، وتقاليدك، وتصورات لحياتك، تتخلى عن شهواتك

{فاحْتمَلَ السَّيْلُ زبَدًا رَابِيًا}

يبدأ الوحي في انتشال القاذورات من القلب فتتجمّع، **واستمرار تعرُّضك للقرآن سيدفع بالطين وهذا الزَبد خارج القلب**.

اختار ابن القيم في الجزء الأول أنَّه ينطبق على الصراع بين الحق والباطل **داخل قلب الإنسان**، وهُناك مَن رفض كلامه وقال إنَّه الصراع بين الحق والباطل في **الخارج**، وليس داخل قلب الإنسان،

وأنَّ ماء الوحي ينزل، فيقوم بتطبيقه بعض أهل الحق، فيعترضهم بعض أهل الباطل،{فاحْتمَلَ السَّيْلُ}، فيحدث بينهم صراع، فينتج أن ينتصر أهل الحق..

اختار ابن القيم اختيار أنَّ الجزء الأول يميل للقلب، وهذا اختيار الشيخ حبنّكة، لماذا؟

لأنَّ الجزء الثاني يتحدث عن التطبيق، والجزء الأول من المثَل يتحدث عن الفكر؛ عن الوحي.

{أَنزَلَ}

ماضٍ، مثل: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}

{مِنَ السَّمَاءِ}

من عند الله

{مَاءً}

صافيًا كثيرًا.

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}

معنى أنَّ هذه القلوب كلها؛ قلوب الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والعلماء، حتى الآن تمتلئ من الوحي؛ هذا يعني **غزارة هذا الوحي**، والسؤال هُنا: **ما نصيبك من الوحي؟!**

ماء يكفي الأُمّة! ما نصيبك منه؟!

كم في قلبك من الوحي؟!

ما المعاني التي تعيش بها من الوحي؟!

ما المعاني التي تُحرّكَ من الوحي؟

{فسَالتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِهَا فاحْتمَلَ السَّيْلُ زبَدًا رَابِيًا}

إذًا ما الذي حدث؟!

لتفهم هذه الجزئية –إذا اخترنا أنَّها في القلب– عُد لمشهد الماء في الدلو، واستمرار تعرُّضك للقرآن..

قد يقول قائل: تعرَّضتُ للقرآن فلم يحدث لي شيء!

يُفترض بك أن تستمر في التعرُّض، لكنك ماذا فعلت؟!

فقط عكَّرْتَ الماء!

إذا كان في القلب شهوات وشبهات، ثم بدأ يتعرَّض للوحي، فإنه لا يشعر أنَّه وصل إلى مرحلة اليقين مرةً واحدة،

وقد قُلنا سابقًا أنَّ **اليقين تراكمي**؛

أي لن يصبح القلب نظيفًا تمامًا من أول قطرة ماء، ويتحول إلى ملاك،

لا؛ بل **لا بد وأن تتعرَّض لآيات**،

وتأتي قاذورات وشبهات وشهوات وصراعٌ؛ بين ما تسمعه من وحيٍ وبين معاني الإيمان، وبين الشهوات التي أمامك والشبهات التي تسمعها،

حتى يقترب القلب من مرحلة اليقين، وهذا باستمرار التعرُّض لنور القرآن.

إذًا؛ الجزء الأول من المثَل، مَثل مائي، يتكلم عن نزول الوحي من السماء، وصراع هذا الوحي؛ سواءً في **قلوب** الناس أو مع **الآخرين**،

وقد اختار ابن القيم أنَّه **صراع داخل القلب** بين الحق والباطل، فالحق ينزل، ويوجد داخل قلبك أهواء وشبهات وشهوات، فيحدث تنازع؛

لذا ابن عطية لم يستسغ هذا الكلام، وأشار لاحتمالية وجود ضعف عن ابن عباس، وأنَّه من التفسير الإشاري،

وقال إنَّ الإمام الغزّالي هو أول مَن أخذ بذلك، لمن يريد العودة لكلام ابن عطية

وقال الشيخ حبنّكة إنَّ هذا على مستوى **صراع الأفكار**.

إذًا لو كان على مستوى صراع الأفكار، فأي هزيمة في أي مناظرةٍ، هذا تقصيرٌ من فَهم الحق!

حينما يُهزَم إنسان في مناظرة بين الحق والباطل؛ هذا يدل على عدم امتلاك الماء الكافي الذي نزل من السماء!

لا بد أن تكون قاعدة ويقينًا عندك؛ لأنَّ {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}

لكن التطبيق قد يشوبه نقص، نحن بشر، ونخطئ كل بني آدم خطَّاء.

قد يسأل سائل:

هل معنى هذا أنَّه لا يصح في المناظرات أن أخرج خارج الماء النازل من السماء –أي خارج الوحي–؟

أُجيبك: أنَّه يَصح أن تستفيد، لكن **لا يصح أن يكون لُبّ طرحك من خارج الوحي**

لذلك، عندما ظهرت قضية علم الكلام وأول ما ظهر، ظهر للدفاع عن المعتقدات الدينية، أدخلنا فيه إشكالات، والإشكاليات صنعت إشكاليات، وظهرت فِرق ومناظرات، لم يكن علم الكلام كافيًا لدفع الحُجج، كان من الممكن أن يُستفاد منه؛ لأنَّ علم الكلام في الأصل –كما كتب كثير من الناس– نشأته مُستفاد من الفلسفة الأرسطية، والجوهر الفرد والله لا يتغير، وقصص كثيرة كُتبت، وحدثت لوثة فلسفية..

فبالتالي، أنت تريد أن تُناظِر عن الإسلام! تريد أن تُدافع عن الإسلام! لكن ليس بوحيٍ صافٍ، فقد يَظهر عليك في نقطة ما كما حدث مع المعاصرين..

جون لينوكس –عالِم رياضيات– وهو من المناظرين الأقوياء بين الملاحدة والنصارى –أي أنَّ نصراني يناظر ملحدًا– مشكلته أنَّه مُصرّ على قضية التثليث في النصرانية؛ فيُؤتى منها، على الرغم من أنَّ معه براهين قوية..

له كتاب يُباع في مكتبات النصارى –وهو كتاب قَيم يساعدك في الرد على الملاحدة وشُبهاتهم– وقد قام المهندس أحمد حسن بأخذ هذا الكتاب وتطهيره من لوثة النصارى وأطلق عليه "أقوى براهين جون ليونكس"

فهُنا قد تستفيد منه،لكن تبقى المشكلة أنَّه مُخلَّط، مُتعكِّر، **لا بد وأن تمتلك القدرة على التصفية،**

كما فعل الشيخ عبد الله الشهري عندما كتب كتاب "وهم الشيطان"، هذا الكتاب كان يرد على دوكينز وكتابه "وهم الإله"، فيرُد عليه الشيخ بأنَّك أنت الواهم وهذا وهم الشيطان وليس وهم الإله.

فعندما تأتي شخصية إسلامية متميزة وتترجم، هُنا يستطيع الاستفادة من حُجج الآخرين، لكن **لا بد أن أكون مُتمكّنًا من الماء الصافي**؛ لئلا آخذ حُجَجًا قد تطعن فيّ، قد أستعمل حُجة ترتد عليّ.

وكان يحدث هذا مع بعض أهل الكلام في المناظرات، خاصةً مع النصارى، وهذه كانت قيمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث استطاع من خلال فَهم هذا كله وفَهم الماء الصافي، فعندما جاء ليرد على النصارى؛ لم يقع فيما وقع فيه مَن تلبّس باللوثة الفلسفية وغير ذلك. وهذه كانت نقطة استطرادية.

الشاهد: ***هل يصح أن نستفيد من جهود الآخرين في المناظرات؟***

نعم يصح، **بشرط أن تكون متمكنًا من الماء الصافي**

هُناك كثيرون في هذه الآونة يردُّون على الإلحاد، وعلى دارون، وقد استفاد الإخوة المتميزون في الرد على الإلحاد منهم، سواء ماير أودنبنسكي أو غيره، كل هؤلاء تُرجمت كتبهم واستُفيد منها،

الخطورة في أخذها كما هي؛ لأنَّ هذا ماء عكر، ستقع وستخطئ، إن لم يكن معك ماء صافي، وستسقط..

لذا من المحتم عليك أن تستمر في التعرُّض للوحي دائمًا حتى تنتصر في المناظرات، أو هذا ليس بابك، لكني أتحدث عن الفكرة العامة.

إذًا؛ نزل الوحي في قلوب رجال، واقتنع الرجال بالوحي، وبدأوا في تطبيقه، وأخذوا يسيرون في الأرض بتطبيق الوحي.

هُنا، **لا بد من صراع!**

لا يوجد وحي كامل بدون أعداء!

وَهمٌ أن يكون هُناك تطبيق كامل للوحي بلا أعداء!

أن نصبح مثاليين، ودين الإنسانية، ونحب بعضنا البعض، ولا يحدث مشكلات،

هذا وَهم، ولن يحدث!

الصراع مستمر إلى يوم القيامة؛ هُناك جُند للشيطان، وهُناك حزب الله،

والأمر مستمر إلى يوم القيامة،

لا تعتقد أنَّ الفريقان سيتصالحان، لن يحدث هذا أبدًا!

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا} [الأنعام:١١٢]

فمن سار على طريق الأنبياء لا بد له من أعداء وسيحدث صدام وصراع.

هُنا يأتي المِثَل الآخر ليُبيّن نتيجة الصراع بين الفكرة الحق بتطبيقها، والفكرة الباطل بتطبيقها؛

لذا حدثت نَقلة في الآية..

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا}

هُنا توقفت بك الآية عند مشهد الزَبد–وهذا من روعة الآية–، توقفت بك وأنت تشاهد مشهد قاذورات وفقاقيع وقد تكون فيها ألوان مُزخرفة.

فمشهد الزَبد؛ مشهدٌ مؤلمٌ على قلب المؤمن، ومشهد **يفتن** كثيرًا من ضعاف الإيمان والمنافقين،

فيظنّون أنَّ الزبد انتصر، انتصر الكفار، انتصر المشركون؛

لأنَّ مشهد الزَبد قد يظل فترة طويلة، هُنا تُرِكَ الزبد، وهُناك زبد آخر،

فهُنا مشهد الزبد **انتصار مؤقت** للمنافقين والمشركين

قد يحدث؛ علو الزَبد مثل كلمة أبي سفيان: "اعْلُ هُبل"[٤]

هذه الكلمة قد تجعل بعض المسلمين يتساءلون: كيف يقول "اعْلُ هُبل"؟! هل انتصروا؟!

هل نصرتهم آلهتهم؟! هل هُزمنا؟! ألسنا مسلمين؟! أليس معنا النبي صلى الله عليه وسلم؟!

{قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} [آل عمران:١٦٥]

كيف يحدث هذا؟!

{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ}

قد يَمكث مشهد انتشار الزبد فترة.

---

[٤] [عن البراء بن عازب:] جَعَلَ النبيُّ ﷺ على الرَّجّالَةِ يومَ أُحُدٍ، وكانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بنَ جُبَيْرٍ، فَقالَ: إنْ رَأَيْتُمُونا تَخْطَفُنا الطَّيْرُ فلا تَبْرَحُوا مَكانَكُمْ، هذا حتّى أُرْسِلَ إلَيْكُمْ، وإنْ رَأَيْتُمُونا هَزَمْنا القَوْمَ وأَوْطَأْناهُمْ، فلا تَبْرَحُوا حتّى أُرْسِلَ إلَيْكُمْ، فَهَزَمُوهُمْ، قالَ: فأنا واللَّهِ رَأَيْتُ النِّساءَ يَشْتَدِدْنَ، قدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنَّ وأَسْوُقُهُنَّ، رافِعاتٍ ثِيابَهُنَّ، فَقالَ أَصْحابُ عبدِ اللَّهِ بنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحابُكُمْ فَما تَنْتَظِرُونَ؟ فَقالَ عبدُ اللَّهِ بنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ ما قالَ لَكُمْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ؟ قالوا: واللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فأقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذاكَ إذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ في أُخْراهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مع النبيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فأصابُوا مِنّا سَبْعِينَ، وكانَ النبيُّ ﷺ وأَصْحابُهُ أَصابُوا مِنَ المُشْرِكِينَ يَومَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ ومِئَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا وسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقالَ أَبُو سُفْيانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلاثَ مَرّاتٍ، فَنَهاهُمُ النبيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قالَ: أَفِي القَوْمِ ابنُ أَبِي قُحافَةَ؟ ثَلاثَ مَرّاتٍ، ثُمَّ قالَ: أَفِي القَوْمِ ابنُ الخَطّابِ؟ ثَلاثَ مَرّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إلى أَصْحابِهِ فَقالَ: أَمّا هَؤُلاءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَما مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقالَ: كَذَبْتَ واللَّهِ يا عَدُوَّ اللَّهِ، إنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْياءٌ كُلُّهُمْ، وقدْ بَقِيَ لَكَ ما يَسُوءُكَ، قالَ: يَوْمٌ بيَومِ بَدْرٍ، والحَرْبُ سِجالٌ، إنَّكُمْ سَتَجِدُونَ في القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بها ولَمْ تَسُؤْنِي، **ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قالَ النبيُّ ﷺ: ألا تُجِيبُوا له، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ أَعْلى وأَجَلُّ، قالَ: إنَّ لَنا العُزّى ولا عُزّى لَكُمْ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: ألا تُجِيبُوا له؟، قالَ: قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا اللَّهُ مَوْلانا، ولا مَوْلى لَكُمْ.**

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٠٣٩ • [صحيح]

{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ}

تخيَّل معي مشهد سبيكة من ذهب، ليست صافية، تُوضع **في النار** وليس على النار {عَلَيْهِ فِي النَّارِ}

"على" و"في" تفيدان الإحاطة التامة، أنَّ الذهب دخل داخل الموقد

هذا مشهد أهل الإيمان في موقد الابتلاءات المتكررة المتتالية: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [الأنفال:٣٧]

مشهد سبيكة الذهب المختلِطة بغيرها من المعادن والشوائب، وهي تدخل داخل النار أو داخل الحديد أو أي شيء، وتتعرَّض للنار من كل الاتجاهات –كما حدث في غزوة الأحزاب؛ كل الاتجاهات اجتمعت على المسلمين–

[مشهد النار المحترقة وأنت تنظر لها، إذ يتساقط جزء من السبيكة]

الذي ليس لديه علم ولا يفهم ما الذي يحدث؛ قد يبكي على تساقط الذهب،

فيأتي إليه رجل عالم قائلًا: لا تبكِ، هذا ليس بذهب، **إنَّما الذي يسقط الآن ليس بذهب إنَّما هو زبد!**

هذا مشهد سقوط بعض الناس بسبب الابتلاءات –نسأل الله الثبات– سقوط بعض مَن كان في الصف..

حزِن بعض المسلمين على عدم خروج أُناس كان ظاهرهم الإسلام في غزوة تبوك؛ لكونهم منافقين،

فيقول الله لهم أن احمدوا الله على عدم خروجهم: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:٤٧]

كانوا سيُنقصونكم؛ فمثلًا إن كان عددكم ألفًا وهم مائتين، فلن يكون مجموعكم ألف ومائتين، بل سيكون ثمانمائة! وقد تتأثرون بهم.

فمشهد الذهب وهو داخل الموقد ويتعرَّض للنار من كل الاتجاهات:

مشهد أهل الإيمان وهم يتعرضون لبلاء تلو الآخر!

موقد الابتلاءات، حتى يبقى أهل الصفاء، هؤلاء عليهم النصر،

التصفية في موقد الابتلاءات، يسقط هذا ويسقط ذاك.

هُناك مَن إذا رأى موقد الابتلاءات أو الأحزاب يقول:

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**} [الأحزاب:١٢]

وهُناك مَن كلما زادت عليه الفتنة قال:

{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**} [الأحزاب:٢٢]

إذًا مشهد الذهب، وهو يتعرَّض للنار من كل الاتجاهات؛

فهُناك مَن إذا رأى المشهد الناري والأحزاب قال: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}

وهُناك، مَن إذا اجتمع عليه الأحزاب فيقول بتعبير سورة آل عمران، عندما يجتمع عليه الناس: { فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣]

وقالوا في سورة الأحزاب: {قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}

وهُنا يخرج الذهب!

هُناك مَن كان يبكي على الذهب المتساقط،

وحينما خرج الذهب صافيًا؛ أيقن بحكمة الله، فَهِم لماذا كانت هذه النار كلها، وفهم لماذا كل هذه الابتلاءات..

كانت لتصفية أهل الإيمان!

{وَلِيمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ} [آل عمران:١٤١]

فبعد التمحيص يأتي المحق، وذكرت ذلك في شرح سورة مُحَمَّد، وجاءت سورة الفتح بعدها،

ففي سورة مُحَمَّد: {وَلَنَبْلُوَنكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ المجَاهِدِّينَ مِّنكُمْ وَالصَّابرِينَ} [سورة محمد:٣١]، ابتلاءات وإظهار لدواخل الناس، فبالتالي جاء الفتح بعد التصفية.

{وَمما يوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النارِّ ابتغاءَ}

الناتج:

{حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ}

فكأنَّ أهل الإيمان هُم زينة الأرض؛ يستفيد الناس من المعادن إما حُليًّا كالذهب والفضة، وإما معادن كالرصاص والحديد والنحاس، يستفيدون منها في حياتهم..

هؤلاء هم أهل الإيمان ممن يُنتفع بهم في ثغور مختلفة؛ ثغور كالذهب، وثغور كالفضة، وثغور كالنحاس، وثغور كالرصاص، وثغور مختلفة؛ (إن كان في الساقة، كان في الساقة)[٥].

[٥] [عن أبي هريرة:] تعِس عبدُ الدينارِ وعبدُ الدرهمِ وعبدُ الخَميصَةِ، إن أُعطِيَ رضِيَ، وإنْ لم يُعطَ سخِطَ، تعِسَ وانتكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ، طوبى لعبدٍ آخذٌ بعنانِ فرسِه في سبيلِ اللهِ، أشعثَ رأسُه، مُغبرَّةٍ قدماه، إن كان في الحراسةِ، كان في الحراسةِ، **وإن كان في السّاقةِ كان في السّاقةِ**، إنِ استأذَنَ لم يُؤذَنْ له، وإن شفع لم يُشَفَّعْ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٩٦٢ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٨٨٧)

فأهل الإيمان وهم أولو البقية الذين يبقون بعد الابتلاءات، هم زينة الأرض، هم نجوم الأرض، هم حلية الأرض.

{ابتغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} وبعد هذا المنتج يكون: {زَبَدٌ مِّثْلُهُ}

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}

تخيَّل أنَّك تقرأ هذه الآيات لأول مرة، فقبل أن يُظهر لك النتيجة، ذكر لك **أنَّه صراع بين الحق والباطل**، الآية تركت الذهب والماء وانتقلت إلى المعادن، ثم تركت الزبد فترة، وكأنَّ فيه إشارة أنَّ هذا الزبد قد يطول لفترة..

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}

ثم نعود للمَثَل مرة أخرى -وسأجمع هنا كل الأقوال-.

{فَأَمَّا الزَّبَدُ}

فأما هذا الزبد الذي حدث في قلبك من اختلاط الوحي مع الأفكار الفاسدة، والشبهات والشهوات في قلبك، وهذا الزبد الذي حدث من مناظرة أهل الحق مع أهل الباطل، وهذا الزبد الذي ظهر بالابتلاءات المتكررة لأهل الحق وظهور المنافقين المستهزئين بالمؤمنين، كل هذا الزبد، سوف يسقط، بل سيذهب من تلقاء نفسه!

{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً}

جفاءً؛ أي يتجمَّع ويسقط من على القِدر

وهُناك محاولة لبعض أهل العلم ليصلوا لمعنى الجذر اللُّغوي لكلمة الزبد، فنعود لابن فارس في مقاييس اللغة، ومن أحسن المتأخرين مُحمَّد حسن جبل -رحمه الله- توفي قريبًا، في كتابه "المعجم الاشتقاقي المؤصل في ألفاظ القرآن الكريم".

ومن المفسرين المغفول عنهم، مَن حاول تحليل هذه اللفظة؛ ويفهم حول أي شيء يدور معناها، فيأتي بالثلاثي والرُباعي للَّفظة، ويُقدِم الفاء والعين واللام، ويُغيِّر إلى أن يصل للحال التي يريدها، وقد يُسجل هذا في صفحتين أو ثلاثة؛ وهو **الإمام البقاعي**، لكن مجهوده متفرق، ونتمنى أن نجد مَن يقوم بتجميعها، فيقول إن الجذر اللُّغوي لهذه الكلمة -الزبد- هو **الخفة**، خفيف.

يقول الدكتور حسن جبل، أنَّ معنى الزبد هو: تجمُّع هَش -أهل الباطل يجتمعون- لكنّه **تجمُّع هش على الظاهر ثم يسقط**.

ويقول أصل كلمة جفاء: أي المعنى اللُّغوي لها؛ الطرح أي يُلقى، فهو تجمُّع هش خفيف يُطرح بعد فترة، ويُلقى.

متى يسقط الزبد؟!

عند استمرار نزول الماء، فهذا استمرار التعرض للوحي، ثم تطبيق الوحي،

ثم يزداد الزبد، فتتعرَّض، فينزل ماء أكثر، فتسيل الأودية أكثر،

فيحتمل السيل زبدًا رابيًا، فيبقى الذهب في النار فترة..

التعرُّض للآيات والتطبيق المستمر لها يُلقي بالزبد،

والتوقف يجعل الزبد يزداد، التوقف في التعرُّض للوحي **يزيد** الزبد!

أما استمرار التعرُّض لنور الوحي، مع التطبيق المباشر، يلقي بالزبد بعيدًا، فيذهب جفاءً..

والنتيجة يقينية؛ كما تغلي الماء عند درجة حرارة كذا، **درجة يقينية كالسُنن الكونية،**

كالماء الذي ينزل في السيول فيحدث كذا وكذا، وكما يحدث انصهار للذهب إذا أُدخل الموقد،

نتيجة يقينية:

{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}

-اللهم استعملنا واجعلنا مفاتيح للخير -.

أحيانًا، قد ترى الناس يعملون على إشغال الإخوة وعموم الناس بقضايا، لماذا تفعل هذا؟

بل ويشغل نفسه بحوارات وقضايا ومشاكل شخصية، ويشغل الناس بها،

هُنا أتذكر قول الله تعالى أنَّه **لن يبقى كل هذا إن كان زبدًا، ولو كان فيه نفع سيبقى.**

إذا كنت تود أن يبقى جُهدك: كُن ما ينفع الناس، كُن نافعًا للناس!

يبقيك الله سبحانه وتعالى..

{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ}

ماذا؟

بصيغة المضارع:

{فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}

فكُلما حاول أهل الباطل اجتثاث أهل الحق، أو فكرة الحق، {فَيَمْكُثُ} بصيغة المضارع؛ لوجود محاولات لإزالته

{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}

كم من شجرة باطل اجتُثت من فوق الأرض؟!

وأما شجرة الحق ثابتة، لها جذور، وقد تكون أنت من هذه الجذور التي تُثبّت شجرة الحق.

{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ}

المثَل كان عن فكرة **الصراع بين الحق والباطل**، سواءً على مستوى الأفكار أو على مستوى التطبيق،

وهذه سُنة ستحدُث، فأين أنت من هذا الصراع؟!

هل أنت ممن يحفظ الوحي من الأرض الأجادب؟

أم من الأرض النقية التي تتفاعل مع الوحي؟

أم أنك ممن ينشر الوحي؟

أم أنك تُطبّق الوحي، تمشي به على الأرض؟!

{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٢]

ما هو دورك في هذا المثَل؟!

ما هو دورك في تلك المنظومة؟!

هل تُشجع الزبد؟

هل أنت من المنبهرين بالزبد؟

ما هو دورك في هذه المنظومة؟

لذلك قال الله بعدها عمن استجاب:

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد:١٨]

الحسنى: قيل العاقبة الحسنى أو الجنة، وهُناك مَن لم يستجب.

هُناك إعراب آخر لهذه الآية ذكره الزمخشري وابن جُزَيّ يقول إنَّ الآية:

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ..} [الرعد:١٧، ١٨]

ضرب الله في الآية المثال للنوعين، ومَن سيختار هذا القول **لا يقف على رأس الآية؛**

فكأنَّه يقول: كذلك يضرب الله الأمثال لنوعين من الناس؛ الذي استجاب والذي لم يستجب،

ضرب الله لهما هذا المثال: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى}

هُنا يوجد محذوف؛ أي الاستجابة الحسنى، {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى}

ثم تقف، {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ} وتقرأ الآيات.

الأشهر: أن تقف ثم تُكمل.

السياق يساعدك في فَهم الآيات، فعندما تقف على:

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } ثم تُكمل الآية..

وقد ذكرتُها في سورة العنكبوت من قبل في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العنكبوت:٧]

فيكون الإيمان هُنا في سورة العنكبوت أي: الهجرة، وعملوا الصالحات تعني: التضحية.

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ} بعد هذا المثَل؛

أي: **الذين تعرَّضوا لماء الوحي، وقَبِلوا بدخول نار الابتلاءات، وثبتوا على ذلك.**

نزل هذا الدين ليكون واقعًا تطبيقيًّا على الأرض؛

لذلك الآيات القادمة تتحدث عن أعمال أهل الإيمان التي تلي:

{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد:١٩]

مَن هم أولو الألباب؟ ماذا فعل الذين قَبِلوا ماء الوحي؟

الذين يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة،

أُناس قاموا بتطبيق الدين على الأرض، بينما هُناك من رفض تطبيقه.

إذًا، **الدين لا بد أن يُطبَّق على الأرض**، لن يظل أفكارًا ومعانٍ فقط!

لا بد أن يُطبِّق الناسُ هذا الدين على الأرض؛ {نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}

هُناك مَن استجاب، ومَن لم يستجب فلن ينفعه شيء.

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}

{سُوءُ الْحِسَابِ}

ورد عن كثير السلف معناها: ألا يُتجاوَز له عن شيء،

وقيل معناها: أن يُناقَش في الحساب، نسأل الله السلامة والعافية، (من نوقش الحساب عُذب)[٦] ومعناها: لا يُغفَر له شيء، أما المؤمن لا يُناقَش الحساب، و يُغفَر له، المؤمن الذي سينجو

{أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}

ثم

{أفمَن يَعْلمُ}

أفمن قَبِل هذا الماء في قلبه،

{أفمَن يَعْلمُ أَنَّمَا أنزلَ إليْكَ مِّن ربكَ الحْقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ}

اربط هذا بأول السورة وما ذكرناه من معانٍ.

{أفمَن يَعْلمُ أَنَّمَا أنزلَ إليْكَ مِّن ربكَ الحْقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إنَّمَا يَتَذكَّرُ أولو الْأَلْبابِّ}

مَن هم أولو الألباب؟

أصحاب العقول الذين طبّقوا الدين على الأرض، أصبح الدين واقعًا في حياتهم،

أين الدين في حياتك؟! أم سنُصبح علمانيين؟!

أين المعاني التي تتلقاها في اختياراتك؟

أين هي في تطبيقاتك؟

---

[٦] [عن عائشة أم المؤمنين:] **مَن نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ** قالَتْ: قُلتُ: أليسَ يقولُ اللَّهُ تعالى: {فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨] قالَ: ذَلِكِ العَرْضُ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٥٣٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٥٣٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٧٦)

{الذِّينَ يوفونَ بعَهْدِّ اللَّه وَلَا ينقُضُونَ الميثاقَ * وَالذِّينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أن يوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافونَ سُوءَ الحْسَابِّ * وَالذِّينَ صَبَروا ابتغاءَ وَجْهِّ رَبِّهِمْ وَأقامُوا الصَّلَاةَ وَأنفَقُوا مّا رزقْناهُمْ سِّرا وَعَلَانيةً وَ يَدْرءونَ بِّالحْسَنةِّ السَّيئةَ أولئكَ لَهمْ عقْبَى الدَّارِّ} [الرعد:٢٠-٢٢]

بعد ذلك يأتي تفصيل لعقبَى الدار.

حينما أنزل الله سبحانه وتعالى الوحي؛ أنزله نورًا للناس،

الله سبحانه وتعالى يريد من أهل الأرض أعمالًا، ويحب منهم أن يقوموا بأعمال.

مثلًا: عندما تنظر للأرض من علوٍ، تجد أنَّ الأرض مُقسَّمة جغرافيًا؛ يابسة ومياه أنهار ومحيطات، واليابسة قارات مُقسَّمة إلى دول..

هذه التقسيمات جزءٌ من خلق الله، وجزء قام به البشر، كالعلاقات والحدود والقوميات والوطنيات والدول الحديثة

هذه **تقسيمات قام بها البشر**، فحدث قطع ووصل على حسب اختيارات البشر!

ففصلوا بين هذه الدولة وتلك بخط، فقطعوا بين هؤلاء وهؤلاء، ووصلوا بين هؤلاء وهؤلاء..

الله عزّ وجل له مراد منّا؛ أن نقطع بين أشياء وأن نصل بين أشياء،

صورة الأرض كما يرضاها الله موجودةٌ في الوحي،

وبالتالي الله سبحانه قد عَهِد إلينا بالإيمان، وأخذ علينا ميثاق الفطرة،

وطلب منّا أن نصل أهل الإيمان، وأن نقطع أهل الكفر،

وأن ننشر هذا الدين، وأن نقيم الصلاة، وأن نصبر على ذلك ابتغاء وجهه،

هؤلاء هم أولو الألباب.

عندما تقوم بالتحرك في الحياة، فاعلم أنك لا تتحرك عشوائيًا، بل فكّر؛ من أين تأتي بالأفكار التي في رأسك؟!

مَن الذي أقنعك أنَّك تختلف عن الدولة التي بجانبك، والتي تقع تحتك، وأنتم مسلمون؟

مَن الذي صنع هذا بداخلك؟

على أي أساس تَصِل وتقطع؟

على أي أساس تَصِل فلانًا وتقطع فلانًا؟

الوصل والقطع بين البشر على غير مراد الله، هذا إفساد في الأرض!

لذلك، كثيرٌ من المفسرين قال إنَّ معنى الإفساد في الأرض: **الولاء والبراء**

عكس الولاء والبراء، انظر للمنافقين، كيف أفسدوا في الأرض، أفسدوا في قضية الولاء والبراء!

أي أنَّه يُوالي أهل الكفر، ويُعادي أهل الإيمان، وهذا من الإفساد في الأرض، وهذا موجودٌ في سورة البقرة،

وفي سورة النساء عندما سُئلوا لماذا فعلتُم ما فعلتُم، أجابوا: {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦٢]

أي: كُنا نحاول تقريب الأمور فحسب، تقريب مسافات.

ماذا فعل أولو الألباب الذين تلَقّوا ماء الوحي؟

سأذكُر الاختيارات فحسب ولن أذكُر الخلاف:

{يوفونَ بعَهْدِ اللَّه}

الإسلام

{وَلَا ينقُضُونَ الميثاقَ}

الفطرة

{يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يوصَلَ}

هُناك أشياء **أراد الله أن يتم وصلها**؛ سواءً الرحم، سواء علاقتك بأهل الإيمان، سواء الجار،

فأنت تُعيد توصيل الناس ببعضهم البعض على مراد الله.

العلاقات البشرية الآن مُقسَّمة إلى قبائل وأنساب، دول، وظائف، وألوان، **ليس هذا مراد الله!**

هذه الوصلة تحتاج للتغيير، الصلة تكون **بين أهل الإيمان**

الرومي مع الفارسي مع الأنصاري مع القُرشي، كلهم كانوا في المدينة أهل الإيمان، كلهم نصروا الدين!

{وَالذِّينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يوصَلَ}

ولن يستطيع الاستمرار بدون الخشية:

{وَيَخشَوْنَ ربَّهُمْ وَيَخافونَ سُوءَ الْحِسَابِّ}

وهذا يحتاج لصبر:

{وَالذِّينَ صَبَروا ابتغاءَ وَجْهِّ ربِّهِمْ وَأقامُوا الصَّلَاةَ وَأنفَقُوا مِمَّا رزقْناهُمْ سِّرا وَعَلَانيةً وَيَدْرءونَ بِّالحْسَنةِّ السَّيِّئةَ أولٰئكَ لَهُمْ عقْبَى الدَّارِّ} [الرعد:٢٢]

{وَيَدْرءونَ بِّالحْسَنةِّ السَّيِّئةَ}

قيل: يقولون لا إله إلا الله،

وقيل: **يقابلون المخالف بالصبر**، حيث كان وقت استضعاف في مكة –وهذا من أدلة أن السورة مكية–

أي: يقابلون المخالف بالصبر؛ بالحسنة السيئة.

{أولٰئكَ لَهمْ عقْبَى الدَّارّ}

ما هي عقبَى الدار؟

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} [الرعد:٢٣]

{جَنَّاتُ عَدْنٍ}

كلمة تحتاج إلى تجميع؛ لأنَّ بعض المفسرين –وورد كذلك عن السلف– قالوا: أنَّها **جنات مخصوصة**،

وعدن من معناها: **الإقامة المستمرة**،

وقال بعضهم: هي **جنات مخصوصة للأنبياء والشهداء والأولياء**.

فنحتاج لأن نجمع مواطنها التي وردت في القرآن.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا}

ومن رحمة الله أن يلحق بهم أهل الصلاح

{وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ}

كانوا يُعاقبون، ويُعذَّبون، ويُقاطعَون في شِعب أبي طالب،

الآن الثواب بما صبروا!

{ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٣، ٢٤]

لن يكتمل لك دينك بدون صبر!

هُناك كلام جميل في كتاب دراسات قرآنية، يقول أنه في السورة حدث تفصيل لصفات أهل الإيمان في أكثر من ثلاث آيات، وأهل الكفر تجمَّعت صفاتهم في آية واحدة:

{وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد:٢٥]

نقض عهد الله؛ سواءً بالتخلّي عن الإسلام أو الميثاق،

سيؤدي إلى قطع أشياء أراد الله لها أن تُوصل،

ستؤدي إلى الإفساد في الأرض.

التخلّي عن المنهج الرباني سيُغيّر شكل العلاقات، ينتج عنه إفساد في الأرض.

على الترتيب؛ ينقض العهد، فبالتالي ليس لديه منهج، فكيف سيُقيّم علاقاته؟!

بالتأكيد على هواه، وهكذا يقطع ما أمر الله به أن يُوصل، وهذا هو الإفساد في الأرض.

{أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}

نكتفي بهذا القدر ونُكمل المرة القادمة بإذن الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكُم،

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.